ما هي الغاية القصوى

طفل المعرفة يسأل هذا السؤال . ثم يجيب : —

أعرف إني موجود لكي أنسل نسلاً من نوعي كما ان أبي وجدّي وُجدا لهذه الغاية وإني وُلد لهذه الغاية . وهكذا تستمر السلالة ما دامت الكرة الأرضية صالحة للحياة . فتى هبطت الحرارة إلى ما تحت الصفر ولم تعد الحياة ممكنة تنقرض الاحياء عن الارض ومن جملتها الانسان ، ذلك لان التفاعل الكيماوي بين العناصر الحيوية لا يعود ممكناً في البرودة المتناهية .

— ولماذا وجدت الأرض ؟

لأن التطوّر المادي اقتضاها . ولأن لها رسالة يجب أن تقوم بها ، وهي أن تنشىء الحياة . ورسالة الحياة أن تنشىء العقل . ورسالة العقل أن ينشىء الجمال والضمير . والجمال شيء نسبي . والحكم فيه للعقل وحده .

وما الغرض من الضمير ؟

الغرض منه أن يقرر العدل والحق ، وبهما يتم الجمال الطبيعي والاجتماعي .

— وما الغاية القصوى من الجمال والضمير والعقل والحياة ؟

الغرض منها أن تحوّل الطبيعة المادية أن تنفذ سننها . والمادة سنن تسير بموجبها . وجميع هذه السنن ترجع إلى سنة الجاذبية . هناك السنّة الالكترونية ، والسنّة الكيمية ، والسنّة الحيوية — كل هذه تتجه إلى تنظيم هذا الكون الأرضي بما نرى فيه من قوى ونظام وجمال وعقل وذكاء .

ومن سنن الجاذبية دوران هذه الأفلاك في مواعيد لا تختل قيد شعرة ولا قيد لحظة وما الغرض من كل هذه الأعاجيب الموجاة الصاخبة ؟ — أكوان متلاءمة في حركاتها غير متعارضة ولا متصادمة .

— وما مصير هذه الأكوان ؟

تذوب شعاعاً وتتناثر ذريرات ثيرية في هذا الفضاء اللامتناهي .

— ثم ماذا ؟

تعود هذه الذريرات الأثيرية فتتكوّن ثانية اجراماً وتتداور في هذا الفضاء ريحتمل أن تتولّد منها أرضٌ كأرضنا وتتولّد من الأرض حياة وعقل، أو تتولّد ذرات أخرى من طراز آخر . ثم تعود هذه الأجرام ثانيةً فتذوب شعاعاً وتتناثر ذرات أثيرية وتعيد سيرتها السابقة مرّة أخرى، كما تكررت هذه السيرة من قبل مرّات لاعداد لا بداية لها، وكما ستكرر فيما بعد إلى ما لا نهاية له .

— متى ابتدأت سيرة الكون الأول .

لا بداية لها .

— ومتى تنتهي .

لا نهاية لها . الكون كله دوران أجرام وذرات لا أول له ولا آخر له في الزمان ولا في المكان .

— وما الغرض من كل هذه الحركات الهوجاء الصاخبة ؟ وما الغاية من هذا العقل ومن الحياة ومن دوران الأفلاك ومن هذا الوجود على الإطلاق ؟

إن كنت تستطيع أن تتصوّر أو تعلم أول هذا الفضاء المكاني وآخره وما وراءه وما قدامه ، وما وراء وراءه وما قدام قدامه — إن كنت تستطيع أن تتصوّر هذا أو تحدّه تستطيع أن تفهم أو تتصوّر ما الغاية القصوى من هذا الوجود .

ولكننا نعلم أن لكل خطوة من خطوات هذا الكون ولكل صورة من صوره غاية خاصّة به ، فهي ، وحالة الكون الأرضي كما هي اليوم ، مستجدة من خطوة سبقتها ومستمدة منها ، هي الاجتماعية الانسانية . وهذه الاجتماعية هي خطوة أولى للمدنية التي نحن فيها الآن . فلذلك يجب أن تكون لنا غاية من مدنيتنا وصورة جديدة لمدنية أخرى تنبثق منها . فما هي الخطوة التالية وما هي صورتها .

في رأي برغسن وغيره من فلاسفة هذا العصر إن كل شكل من أشكال الوجود كان مضمراً فيما سبقه . ومدنيتنا كانت مضمرة فيما سبقها من المدنيات البدائية . وتطوّرات المجتمع هي سلاسل متداخلة بعضها ببعض . أو بالأحرى هي أعواد منبثقة بعضها من بعض كأعواد القصب ، أو هي براعم نبتت بعضها من أطراف بعض ، لاحقها كانت ضمن سابقتها ، كأنها جميعاً مطويّة الواحدة ضمن الأخرى ، وعامل التطوّر كان يفرّقها .

المدنية الشرقية الحالية انبثقت من مدنيتي مصر وبابل (بغض النظر عن مدنية الشرق الأقصى . فلتلك مجرى آخر مماثل . وقد اندمج أخيراً بهذه) وكانت حبلى بمدنية الكهانة

والحكمة والفن كما نرى في آثارها كلها وصناعتها . ثم تمخضت هذه المدنية الفلسفة والعلم والحكمة التي تصوغ الأخلاق وتتطبع الأدب النفسي . وقد نشأت في شمال أفريقيا وروما . ثم انبثقت منها مدنية العلم والشريعة في أوروبا وفي سائر بلاد البحر الأبيض . وأخيراً انفجرت منها جميعاً مدنية العلم الطبيعي ، فانبثقت منها مدنية الاختراعات التي هي طابع مدنيتنا الحديثة .

فترى أن مدنية الاختراعات كانت مطويّة في المدنيات السابقة إذ كانت جرثومتها جنيناً في رحم المدنيات القديمة .

تُرى كيف تكون المدنية الجديدة القادمة التي تنطوي عليها مدنيتنا الحديثة ؟

الاختراعات التي استخرجت من الطبيعة كل ما فيها من نفع وجمال وبهجة أصبحت تهدد الإنسان بويلات لم تخطر له ببال من قبل . ولكنها بالحقيقة لم تكن إلاّ وليدة محاسن المدنية التي سبقتها — مدنية عهود البداوة والهمجية .

قبل أن نشأت اجتماعية الإنسان كانت متكونة في بطن اجتماعية أشباه الإنسان (Pre-men) كالنمل النحل والأرضة الخ ، وكسائر أنواع الحيوانات كالنحل والنمل . وماذا كان غرض الطبيعة من اجتماعية أشباه الإنسان ؟ كان الغرض منها التعاون للحرص على البقاء وللتمتع بالحياة .

فإذاً هدف اجتماعية الإنسان ومدنيته الحرص على بقاء الإنسان وتمتعه . وقد بلغت هذه المدنية هذا الهدف إلى أقصى مداه . فالنوع الانساني طغى على جميع أنواع المملكة الحيوانية . وليس في سائر أنواع الحيوان نوع يضاهي الإنسان بالنمو العددي والانتشار المكاني والتمتع .

ولكن ويا أسفاه لقد سبق ذلك التعاون للحرص على البقاء تنازع للبقاء حادٌ يفضي الى القتال . ثم انتقل هذا التنازع الى المدنيات المتوالية وما زال يشوه مدنية التعاون ويثلم محاسنها

الاختراعات التي جاءت زينة المدنية الحديثة وسبب بهجتها كثيرات من المدنية السابقة جاءت ومعها ويلات للانسان قد تكون سبب فناء مدنيته هذه الجميلة

جاءت مدنية الاختراع بالفقر المدقع الى جنب الغنى الفاحش . وجاءت بالقتال والحروب الى جنب أسباب السعادة والسلام . جاءت بالدمار والخراب في صميم العمران والفلاح . فهي مدنية المتناقضات التي تفني بعضها بعضاً .

فما سبب هذا الخطأ في سير الطبيعة ، وعهدنا بالطبيعة سائرة على سنة التطور التي تكفل

الرقي من أدنى الى أعلى ومن أقبح الى أجمل !

السبب أن مدنية العلم والفن والاختراع تركت وراءها مدنية الحكمة التي تطعّم الأدب النفسي وتطوّع الأخلاق . فهي متطرفة بالرقي المادي ومقصرة في الرقي الخلقي . ذلك لأن اللذة المادية أقرب منالاً واللذة النفسية أضيق مجالاً . وهذا ظاهر من مظاهر خصومة النفس والجسد .

بقي أن نسأل ، ما هي الغاية القصوى من هذه المدنية التي امتازت بتناقضاتها . وبعبارة أخرى ما هو مصيرها ؟

ليس في الامكان التنبؤ بالمصير . وإذا شئنا أن نبحث عن شكل جنين المدنية القادمة في بواطن مدنيتنا رأينا أن هذه تنطوي على أسباب فنائها . فاذا بقي رحم العلم والفن خصباً بهذه أسباب الرقي المتناقضة ، وبقي العمران يتناول منها أجنة الشهوات الجسدية مجردة عن مواليد اللذات النفسية ، قربت المدنية الحالية الى عهد احتضارها . وربما كان الجنس البشري كله في دور الانقراض ، اذا هرمت نفسه الأدبية وتلاشت ذرة الخلقية وسادت سلطة الذرّة واستفحلت قوة الجراثيم المرضية بارادة الانسان واختياره في ميدان التنازع . فهل يمكن أن ينقرض الانسان وتبقى أنواع الحيوان الأخرى ؟

الحياة تبقى على الارض ما دامت الارض صالحة لها — والانسان لا ينقرض عن الأرض الاّ اذا تمخضت المدنية عن انسان آخر أو حيوان آخر أقدر منه وأرجح للاجتماع فانقرض الديناصور الضخم الذي كان أقدر حيوان إلاّ لما جاء الانسان فبزه بحيله التي حنقت تلك الضخامة أمام هذا الذكاء ، كما ان الحيوانات الضارية تنقرض الآن من أمام وجه الانسان . فهل يمكن أن تتمخض مدنيتنا عن قوّة خارقة تبزّ هذا الذكاء البشري الحالي ؟

ماذا في الطبيعة من سر يفوق الذكاء البشري ويصرعه ويستعبده ويجعله خادماً له ؟ كما ان هذا الذكاء استعبد أقوى الحيوانات وطوّعها وروّضها ، بل فعل أعجب من هذا ، استعبد نواميس الطبيعة وسخّرها لخدمته .

* * *

في أوائل ظهور اينشتين بنسبيته كان المغفور له الدكتور صروف يحدثني ذات يوم عن غرابة هذه النظرية وهو متحير في فهمها ومخالفتها للمعقول وقال : «يقال إنه في العالم الآن ١٢ عالماً فقط يفهمون النسبية » . فقلت «هناك أحد امرين . إما ان اينشتين وهؤلاء الاثني عشر من زملائه مخرّفون يصدقون المعجزات المستحيلة أو انهم تجاوزوا عقول

البشر ، وكأنها دخلت في طور جديد يختلف عن طور العقل البشري الحالي، كما أن عقل الإنسان ارتقى إلى طور يختلف عن عقل « الاوران اوتان »

فهل يا ترى يتمخض الذكاء البشري عن ذكاء جديد يستلم زعامة المدنية القادمة ويكون في المملكة الحيوانية دور جديد غير دور الإنسانية — فكيف يكون ذلك ؟

لا يخطر لنا إلا أن نسميه دور الالوهية .

لا أعتقد أن الجنس البشري تقرضه القنبلة الذرية ولا الجراثيم المرضية . فهو كما اخترع آلات الفتك والدمار يخترع الوسائل لاتقاء هذا الفتك، كما أنه يخترع الأدوية والعلاجات الطبية لاتقاء الأمراض . ومهما أباد الإنسان من أفراد جنسه يبقى على وجه الأرض بقايا من البشر يستمرون بالمدنية . لاينقرض الإنسان إلا بانقراض الحياة كلها بتاتاً عن الأرض. فما دامت الطبيعة تقدم للحياة عناصر بقائها وما دامت الحياة تقدم للعقل عناصر بقائه، والعقل يقدم للذكاء أسباب ذكائه. فالإنسان باق والتطور مستمر والاختراع مستمر.

* * *

ماذا بقي للانسان لكي يخترعه ؟ — الذين يعيشون سيرون .

وأما القول إنه بقي للإنسان أن يصعد الى القمر ويطوف بين الاجرام فلا أعتقده، لأنه لا فائدة للانسان من أن يخاطر في الصعود إلى القمر . لا أعتقد إن الإنسان يرتكب هذه الحماقة العقيمة النهم إلا إذا كان إنسان الغد إنسان الطور الجديد القادم يخترع الآلات التي تمكنه من هذا المستحيل او شبه المستحيل . قد يتمكن الانسان الحالي ان يقذف بقذيفة تصل الى القمر ولكنه لايستطيع الصعود اليه فيها. وقد يستطيع انسان الغد ان ينجح بهذه الغزوة للقمر اذا كان قد تطور عقله وراق عقلنا وأصبحنا بالنسبة اليه كأشباه الانسان بالنسبة الينا ، وإذا تطورت ايضاً بنيته الجسدية بحيث تحتمل الضغط ، وتعدل نظام التنفس والدورة الدموية الى غير ذلك .

متى يتمكن ان يكون ذلك ! — بعد مليون سنة — إن شاء الله . ومن يعش يره . وماذا بعد ذلك !

اذاً يبقى سؤالنا الأول « ما هي الغاية القصوى » بلا جواب قاطع ، ويبقى هكذا الى ان ينتهي الانسان بفناء الحياة برمتها، وبفناء الكرة الأرضية وسائر الاجرام ، وتعود الى اصلها الأول ، من الاثير والى الاثير تعود .

ن . ح